فقه الرحمة في خلق رسول الله ﷺ ومعالمها في علاقته ﷺ بأسرته

صلى الله عليه وسلم
محمد

د. إيمان عادل عزّام - أكاديمية سعودية

عندما يصف عالمٌ الشمسَ فإنما يصفها بما أمكن له أن يصل إليه علمه، فهو قد يقرب من الحقيقة، ولكن يصعب أن يحيط بها، لأن الله تعالى يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، هذا.. والشمس مخلوق سخّره الله تعالى للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٣) فما بالنا بسيد البشر، بل سيد المخلوقات.. سيدنا محمد ﷺ حبيب الله تعالى ومصطفاه، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خلقه! فمهما قدّمت دراسات تتناول سيرته العطرة أو أخلاقه الزكية، فإنما تبقى محاولات تحكي ما وصل إليه جهد الباحث والدارس حسب فهمه هو ليس إلا.

فإنه من العسير أن يفهم العقل أو أن تفصح اللغة والعبارات والمفردات عن لطائف وأسرار أخلاق من اصطفاه الله تعالى، وأهداه رحمة للعالمين، وفضّله على مخلوقاته أجمعين، ومدحه بعبارة جامعة عظيمة في قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، فلا يبقى للدارسين إذًا إلا نقل الروايات العظيمة عن رسول الله ﷺ من بطون الكتب، وتقديم بعض إشارات وتلميحات لمعانٍ يبقى الفكر عندها مشدوهًا مطرقًا معجبًا مطأطئًا في إجلال لنبيّنا محمد ﷺ.

ومن تلك الدراسات المتواضعة التي تحكي جهد المقلّ بحث شاركت به في مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ الذي أقامته الجمعية العلمية السعودية للسنّة بوطني الحبيب المملكة العربية السعودية في عام ١٤٣١هـ، وتناولت فيه دراسة خلق الرحمة عند رسول الله ﷺ في مظهره المتّصل بالأسرة؛ لأنّ الأسرة هي المقياس الحقيقي الذي يكون به التفاضل بين الناس، قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله...»(١)، والسبب في كون الأسرة هي المقياس يحتمل معنيين: الأول: أن الأسرة هم الأفراد الذين يبعد معهم المرء عن التصنّع والتكلّف والمداراة، فتكون المقياس الصادق من جهة، والثاني: أن الأسرة هي المقياس الكامل فمتى غلب على امرئٍ حسن الخلق مع أهله في معظم أوقاته رغم طول المخالطة واختلاف الأحوال، كان خير الناس.

الرحمة والحب وجدا بصورهما الكاملة عند رسول الله ﷺ ولهذه الأسباب كانت الأسرة معيارا لقياس حسن الفرد أو سوئه

وأهم ما وصلتْ إليه الدراسة ما يلي:

- خلق الرحمة أحد أهم الأخلاق في دين الإسلام، وأهم خصائص رسالته، فقد سمّى الله تعالى نفسه باسم الرحمن الرحيم، وخصّ الله تعالى هذين الاسمين بفاتحة كتابه، وبالبسملة التي تفتتح بها سور القرآن، وبعث الرحمن الرحيم رسوله رحمة مهداة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، و«نبي الرحمة» أحد أسماء النبي ﷺ التي ذكرها لنفسه كما روى الترمذي- رحمه الله(٢).
- تشير النصوص الشرعية إلى ارتباط الرحمة بكثير من مكارم الأخلاق، أوّلها: الإيمان، والإحسان إلى الخلق، والسلم، والمسالمة، والوسطية، وبر الوالديْن، واللين، ولطف القول، والعفو والحلم والتسامح، وآخرها: الكرم، وتشير إلى هذا الربط بين الرحمة والأخلاق المذكورة شواهد من نصوص الكتاب والسنّة.

وصلت الدراسة من تعريف الرحمة إلى أن الرحمة شعور وسلوك، فالرحمة في الجزء الشعوري منها خلق فطري، وهي رقّة خلقها الله في قلب ابن آدم، ثم الرحمة في الجزء العملي منها عبارة عن سلوك هو صورة من صور الإحسان عند الاستطاعة، أو العبرات عند العجز، قال تعالى عن الجانب الفطري ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال ﷺ عن الجانب السلوكي: «لن تؤمنوا حتى تراحموا»(٣)، أما العبرات، فقد قال ﷺ: «فإنه مهما يكن من العين والقلب فمن الرحمة، وما يكون من اللسان واليد فمن الشيطان».

- من تأمل نصوص السنّة القولية والفعلية التي ورد فيها وصف سلوك ما بأنه رحمة لاحظ البحث أن في الموقف نوعًا من أنواع الضعف البشري يثير الرحمة بجزأيْها الشعوري والسلوكي لدى الشخص الرحيم، وكان صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى في ملاحظة الضعف الذي هو ملازم لكل الكائنات، وفي فهم حاجات الخلق والتعامل مع المخلوقات كافة بالرحمة العامة المطلقة المنضبطة بالشرع.

لأن البحث يهتم بالأسرة، والعلاقات في الأسر يظهر فيها الحب والرحمة جميعًا، فقد اهتمّ البحث بتوضيح العلاقة بين الرحمة والحب وبيان الفروق بينهما، كي يكون انتقاء الأمثلة والشواهد من الجزء الذي منبعه خلق الرحمة تحديدًا، وكانت الفروق على النحو التالي:

الفرق الأول: أن الرحمة عامة تعمّ الخلق أجمع: مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، صغيرهم وكبيرهم، حيّهم وميّتهم، بل هي عامة تعمّ المخلوقات من إنس وجنّ وحيوان ونبات، بل قد تبلغ الرحمة الجماد، فلما اتخذ ﷺ منبرًا، وكان قبله يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، قال جابر بن عبدالله كما جاء في الصحيح: «صاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمّها إليه تئن أنين الصبي الذي يُسكّن»(٤)، أما الحبّ فهو مخصوص، لذا صرّح النبي ﷺ بحبّه لأشخاص معينين، منهم السيدة عائشة- رضي الله تعالى عنها- واشتهر ذلك بين الصحابة، وفي حديث عند البخاري: «وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها»، واعتذر النبي ﷺ عن حبه لبعض نسائه، فقال: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»(٥)، وهذا الفرق مذكور في الأحاديث: فقد قال رسول الله ﷺ عن الرحمة: «لن تؤمنوا حتى تراحموا. قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم . قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة النّاس رحمة العامة»(٦).

الفرق الثاني: أن الرحمة مطلقة حيث تكون في كلّ الأحوال غير مقترنة بالمسرّة، ولا بما يناله المحبّ من محبوبه من وجوه النفع والرضا، فهي رقّة جُبِل عليها القلب عادة ما يثيرها ضعف في الآخر، وينتج عنها الإحسان إلى من به ضعف أو حاجة بوجه من الوجوه، وذلك بخلاف الحبّ الذي يرتبط كما تقدّم بالمسرّة أو الشعور بالرضا أو النفع، ويكون ميلًا إلى معيّنين يمكنهم جلب هذه المسرّة بوجه من الوجوه.

اهتم البحث بالتأمّل في صفة وجود الرحمة والحبّ في حياة رسول الله ﷺ ووصل إلى:

١- أن رسول الله ﷺ رحم الخلق أجمع، وأحبّ نفرًا من أسرته وغيرهم، لكنه اتخذ الله سبحانه وتعالى وحده خليلًا، فالحبّ في أعلى مقاماته، وهو مقام الخلّة، مخصوص بالله تعالى، فقال ﷺ في حديث طويل: « .. ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودته... » الحديث (٧) ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تتورم قدماه (٨) وهو الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ويقول عن الصلاة: «يا بلال، أقم الصلاة أرحنا بها» (٩)، وخيّر ﷺ بين مفاتيح خزائن الدنيا ثم الجنّة وبين لقاء ربه، فاختار لقاء الله (١٠) فرسول الله ﷺ لم يتخذ خليلًا غير ربه.

٢- أن الرحمة والحب وجدا بصورتهما الكاملة عند رسول الله ﷺ، فالحب عند رسول الله ﷺ حب معصوم، فالحبّ عنده ليس هوى، وكذلك الرحمة عند

نبي الرحمة منضبطة بضابط الشرع، فالرحمة عند رسول الله ﷺ ليست ضعفًا: عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادمًا أو امرأة» (١١) فقول السيدة عائشة: «ما ضرب رسول الله ﷺ» هذا رحمة.. وقولها: «إلا أن يجاهد في سبيل الله» هذا شرع.

٣- أن الرحمة في أخلاق رسول الله ﷺ فوق الحبّ، والعربي يقرأ في أسلوب الحصر في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أن منبع تصرّفاته ﷺ كلّها هو الرحمة، ولكنها الرحمة الكاملة المنضبطة بضابط الشرع كما قدّمنا.

عرض البحث نماذج من رحمة النبي ﷺ في تعامله مع أسرته مستخرجة من أحداث السيرة النبوية تؤيّد ما وصلت إليه الدراسة في إطارها النظري، وروعي في اختيار أمثلة البحث جانبان:

١- توافر الضابط الذي به تتميز الرحمة عن الحب، وهو ملاحظة جانب الضعف في الموقف الذي أثار رحمة نبي الرحمة ﷺ.

٢ – أن تكون المواقف متنوعة من حيث اتصالها بمن يمثّلون أفراد أسرة رسول الله ﷺ من أبناء و بنات أو آباء أو نساء أو أصهار... الخ، ومن حيث درجة القرابة من ولد وولد ولد.

وأنتقي من المشاهد العديدة مشهدًا أعرضه للقارئ في هذا الملخّص يكون كالمثال لغيره، وهو مشهد يحكي الرحمة المنضبطة بضابط الشّرع الذي يحثّ المسلم على التخلي عن زهرة الحياة الدنيا وإيثار الآخرة، حيث يرقّ صلوات الله وسلامه عليه لحاجة ابنته الحبيبة السيّدة فاطمة- رضي الله عنها- حيث أثّر الرّحى في راحتيّها فأجهدها، فأتت تسأل أباها من السّبي ما يعينها، فلم تجده، روى سيدنا عليّ رضي الله عنه «أن فاطمة- رضي الله عنها- شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبي ﷺ سبيٌّ، فانطلقتْ، فلم تجده، فوجدت عائشة، فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: مكانكما، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: ألا أعلّمكما خيرًا مما سألتماني: إذا أخذتما مضاجعكما، تكبّران أربعًا وثلاثين، وتسبّحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم» (١٢) فقد حملت رحمة نبي الرحمة ﷺ على المبادرة إلى الذهاب إلى ابنته فاطمة- رضي الله عنها- حين بلغته حاجتها فور إخباره رغم أن الجوّ كان باردًا والزمن شتاءً، ولم ينتظر ﷺ حتى تأتيه ابنته ثانية سائلة عن الإجابة، بل لم ينتظر ﷺ حتى يأتي الصباح فيأتيها، بل سارع إلى ابنته وزوجها وقد أخذا مضاجعهما، فلما دخل بيت فاطمة- رضي الله عنها- وهمّ عليٌّ رضي الله عنه بالقيام أدبًا، أمره ﷺ أن يبقى في مكانه، وقعد ﷺ بين الزوجيْن اليافعين على فراشهما، تلمس قدمه الشريفة صدر عليّ رضي الله عنه حتى وجد عليّ برد قدميه على صدره، على وفق ما تنبّهت إليه الدراسات الحديثة من أهميّة التقارب الجسدي بين المتخاطبيْن، ثمّ أرشدهما الأب (الرسول ﷺ) برحمته المعصومة بالشّرع بما هو خير لهما من خادم.

وعمومًا، فإن المشاهد الحاكية عن رحمة رسول الله ﷺ بأسرته عديدة، حوى البحث طرفًا طيبًا منها.

فالحمد لله تعالى أن جعل ديننا دين يسر ورحمة، وخصّنا بنبي الرحمة ﷺ، والرحمة في حقّنا واجب حتمي ليس مجرّد خلق من نافلة الأخلاق الحسنة، يشهد لذلك قوله ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» (١٣) ورغم أن في الرحمة جزءًا شعوريًا خلقةً إلا أنه يمكن اكتسابها بإدامة العمل بالجزء السلوكي منها، يقول الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ- رحمه الله: «... هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعًا انتهاء. وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، أعني النفس والبدن، فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح، فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دوْر» (١٤).

وهذا مصداق قوله ﷺ فيما روى أحمد والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم» (١٥).

وصلِ اللهم على نبي الرحمة سيدنا محمدَ وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

١- صحيح ابن حبان (٤٨٤/٩)، حديث رقم (٤١٧٧).

٢- الشمائل المحمدية (ص٣٠٦)، حديث رقم (٣٦٨).

٣- مجمع الزوائد (٨/ ١٨٦- ١٨٧) قال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

٤- صحيح البخاري (١٣١٤/٣)، حديث رقم (٣٣٩١).

٥- رواه الحاكم وصححه، المستدرك على الصحيحين (٢٠٤/٢)، حديث رقم (٢٧٦١).

٦- مجمع الزوائد للهيثمي (١٨٦/٨- ١٨٧)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

٧- صحيح البخاري (٣/ ١٣٣٧)، حديث رقم (٣٤٥٤).

٨- من حديث أبي هريرة، انظر: الكنى والأسماء (٢/ ٦٢٢)، (١١١٤).

٩- سنن أبي داود (٤/ ٢٩٦) ، حديث رقم (٤٩٨٥).

١٠- المعجم الكبير للطبراني (٣٤٧/٢٢) ، حديث رقم (٨٧٢).

١١- الشمائل المحمدية للترمذي (ص٢٨٨)، حديث رقم (٣٤٩).

١٢- صحيح البخاري (١٣٥٨/٣)، حديث رقم (٣٥٠٢).

١٣- رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٣٦)، حديث رقم (٣٧٤).

١٤- إحياء علوم الدين (٥٩/٣).

١٥- مسند أحمد بن حنبل (٢/ ٢٦٣) حديث رقم (٧٥٦٦) ، سنن البيهقي الكبرى (٤/ ٦٠) حديث رقم (٦٨٨٦).